(القديم) معياراً نقدياً
حتى نهاية القرن السابع الهجري

الأستاذ الدكتور
حاكم حبيب الكريطي
الباحث
لواء تقي عبد نور العيساوي
جامعة الكوفة - كلية الآداب

(القديم) معياراً نقدياً حتى نهاية القرن السابع الهجري

الأستاذ الدكتور
حاكم حبيب الكريطي
الباحث
لواء تقي عبد نور العيساوي
جامعة الكوفة - كلية الآداب

المقدمة :

عُرف الأدب الذي يستمد أصوله من الشعر الجاهلي، بالقديم ، ذلك النتاج الواعي الأصيل الذي صدر من كبار الشعراء الذين خلقوا لنا عملاً فنياً رائعاً ، عبروا فيه عن إحساساتهم و مشاعرهم بكل سهولة ، ويسر ، وصدق، فجاء شعرهم صدى لتلك الحياة التي صوّروها في قصائدهم ، ملتزمين بتفاصيل الواقع ، وعناصره كلّها .

ولعل من بين أهم دواعي التحديد الزمني للاحتجاج بالشعر(عند اللغويين) ؛ ماجدّ على الحياة العربية ، لاسيما بعد أواخر القرن الأول الهجري ، إذ بدأت الحضارة الإسلامية طوراً من التفاعل مع الشعوب والحضارات التي دخلت الإسلام ، فكان أول جهدهم موجهاً إلى المحافظة على لغتهم من العجمة التي تسربت إليها بعد الفتوحات ، فعلى سلامة تلك اللغة يتوقف فهمهم لمصادر دينهم ، وهو أعز ما يملكون[١] ، ومن هنا جاء حرصهم على العناية بالشعر القديم ، وتدوينه فهو حجتهم في تفسير ما أشكل عليهم من غريب القرآن الكريم ، وحاجتهم إليه في وضع قواعد اللغة ، واستنباط أصولها[٢]، للوقوف بوجه اللحن الذي شاع نتيجة الاختلاط [٣]،((فتعززت الحاجة إلى الشعر الجاهلي ، لأنه أصبح الأساس الذي بنيت عليه قواعد هذا العلم ، والنبع الذي استمدت منه قوانينه وأصوله))[٤].فجاء

الاعتناء بالشعر القديم وجمعه ، وتدوينه ، فضلاً على دراسته وتحليله من لدن علماء اللغة،لما يُقدمه لهم من مادة ،تبنى عليها العلوم اللغوية التي جدّت، والتي أرادوا لها أن تبنى على القديم فقط ؛ لصفائه ، وبُعد قائليه عن البيئات الجديدة التي انغمس فيها العرب ـ بعد خروجهم من الجزيرة ـ ، والتي شهدت اختلاط الألسن وتنوعها(٥). وبهذه النظرة اللغوية الخالصة ،عمد أنصار القديم إلى الشعر الجاهلي يتمثلونه في لغته وفي نهجه الشعري ، بوصفه الحاضنة الأصلية للغة ، وإنَّ القرآن نزل بلغته ، فصار هو المثال الذي يجب على شعراء العصور اللاحقة أن يتمثلوه مثلما تمثله أهل اللغة ، وصار شعراء ذلك المثال هم المقدّمون لتقدم زمانهم ، فتقدم المتقدم لتقدم زمانه ، وإن كان متأخراً ، وتأخر المتأخر لتأخر زمانه وإن كان متقدماً(٦)،وأضحى الزمن من المعايير التي صار الناقد يحتكم إليها في الشعر والشعراء ، فضلاً عن البداوة التي عدوها مقياساً لشاعرية الشاعر ، وفصاحته .

ـ الزمن معياراً نقدياً :

\كان للعنصر الزمني أثرٌ كبيرٌ عند النقاد في تقويم الشعر ونقده ، حتى ذهبوا إلى القول بأن الشعر كلما بعد عهده ، كان أحضى بالقبول من الشعر الذي كان قريب العهد(٧). فبعد الزمن مزية وفضيلة منحت الشعر جزالة ، وفصاحة ، وعصمته من أي خطأ قد يقع فيه الشاعر الذي قرُب عهده ، وفسدت لغته أو لانت ؛ لأن خروجه من ذلك الحد الزمني جرده من حصانة السابقين ، وجعله عرضة لمرامي النقاد .

\ومن هنا كان رفضهم الشعر المحدث ، لا لشيء إلا أنه محدث ، حتى وإن بلغ مرتبة عالية من النضج الفني ؛ ذلك أن النقاد لم يكونوا ينظرون في الشعر نفسه ، وإنما كانت نظرتهم ترتكز على عصر قائل الشعر ، ولم يكن للمحدثين من ذنب إلا أنهم تأخروا عن ذلك العصر الذهبي الذي عُد مقدساً عند اللغويين ، إذاً صار المقياس لدى هؤلاء النقاد ، (المقياس الزمني) وأرتبط

هذا باسم الشاعر أو زمن الشعر ، وابتعدوا عن النظرة الفنية الموضوعية التي تقوم على النظر في الأثر الشعري نفسه ، وهذه النظرة اللغوية التي أقرها اللغويون ، لم يستطع أحد منهم التجرد منها ، أو الخروج عليها ، حتى لو وجد في شعر المحدث ما يعجب ذوقه الفني ؛ لما فرضه عليهم منهجهم اللغوي بشأن الزمن ، فكان أبو عمرو بن العلاء (ت:١٥٤هـ) يقول : ((لقد أحسن هذا المولد حتى هممتُ أن آمر صبياننا بروايته ، يعني بذلك شعر جرير والفرزدق، فجعله مولداً بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين ، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين))[٨]، وقد بلغ من التعصب الاستغناء التام عن الشعر الإسلامي ، وكان شديد الوطأة عليه ، حتى أنه لم يروِ شيئاً منه ، يقول الأصمعي :((جلست إليه ثماني حججٍ فما سمعته يحتج ببيت إسلامي))[٩]، وعندما سُئل عن المولدين أجاب : ((ما كان من حسن فقد سُبِقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم ...))[١٠]، وهذا القول يفصح عن تعصب أبو عمرو للقديم ، فهو يقصر الإحسان عليه ، وان جاء به المحدث فلا فضيلة له تذكر ؛ لأنه قد سُبِق به من القدماء ، وما جاء لا محالة مسروق منهم ، أما القبح فأمر استقل به المحدث ولا يجوز على الشعر القديم[١١]، ولاشك في أن الناقد، بملكته النقدية ، وخبرته العلمية يستطيع التمييز بين الشعر و الشعراء ، ولكنه وقف بين أمرين أما أن يخالف منهجه ويخرج عليه ، أو ينكر نتاجاً فنياً ، وشاعراً يُشار له بالبنان بتقدمه ،الأمر الذي نلمسه في حكم أبي عمرو بن العلاء على الأخطل قوله : ((لو أدرك الأخطل من الجاهلية يوماً واحداً ما قدمت عليه جاهلياً ولا إسلاميا))[١٢] ويعلق الأستاذ الدكتور حاكم الكريطي على هذا الحكم قائلاً : ولعلنا ـ هنا ـ نشعر بالأسى الذي كان يغلف نفس أبي عمرو بن العلاء ، وهو يقول في الأخطل : لو أدرك يوماً من الجاهلية ما قدمت عليه جاهلياً ولا إسلامياً، نعم هذا الأسى الذي يشيء بعدم رغبته ، بل بعدم قدرته على تجاوز ما قرّره هو وأضرابه من علماء اللغة بشأن الزمن ، ليضع

الأخطل الأموي في المكان الذي يستوعب شاعريته ، ويليق به بين الشعراء العرب [١٣]، فهذا الموقف هو موقف اعتذار ودفاع عن الزمن المقدس الذي بلغ التعصب والانتصار له ما بلغ ، فهذا خلف الأحمر (ت:١٨٠هـ) الذي ردّ على الشاعر محمد بن مناذر ، حين طلب منه أن يقيس شعره إلى أشعار القدماء ، أن أخذ صفحة مملوءة مرقاً فرمى بها عليه[١٤] ، وكأن خلفاً ؛ وجد في طلب الشاعر جرأة على تجاوز المقياس الذي أُقر لترتيب الشعراء على وفق السبق الزمني ، و تابع الأصمعي(ت:٢١٦هـ) منهج أبي عمرو بن العلاء حرفياً في جعل الإسلام حداً فاصلاً بين من يقبل ابداء الرأي فيه وفي شعره ، وبين مَنْ لا يقبل الخوض في الحديث عنه ، ومن ينظر في كتاب فحولة الشعراء يكشف هذه الحقيقة بيسر[١٥] ،فكانت صفة (الفحول أو غير الفحول) خاصة بتصنيف الجاهليين فقط ، أما حين يُسأل عن جرير والفرزدق والأخطل قال : ((هؤلاء لو كانوا في الجاهلية كان لهم شأن، ولا أقول فيهم شيئاً لأنهم إسلاميون))[١٦]، فالحكم واضح ، ولو تأملنا قول الأصمعي ، نجده يشير إلى عظم شأن هؤلاء في ميدان الشعر ، وان شاعريتهم طاغية حتى لو قيست بالشعر الجاهلي ، فتأخرهم إلى العصر الإسلامي ، حال بينه وبين إخضاعهم لنظرة تقويم الفحول ،أو غير الفحول ، بيد أن ثمة نص في كتاب الفحولة عن أبي حاتم السجستاني (ت:٢٤٨هـ) يقول : ((وكنت أسمعه يفضل جريراً على الفرزدق كثيراً فقلت له ...فما تقول فيهما وفي الأخطل فأطرق ساعة ثم أنشد بيتاً من قصيدته : ﴿من الطويل﴾

لَعَمري لَقَد أسرَيتُ لا لَيلَ عاجِزٍ بِساهِمَةِ العَينَينِ طاوِيَةِ القُربِ

وانشد أبياتاً زهاء العشرة ، ثم قال : من قال لك أن في الدنيا أحداً قال مثلها قبله ولا بعده فلا تصدقه))[١٧]، فالأخطل إذن ، أفضل الجاهلين والإسلاميين عند الأصمعي ، إلا أنه لم يستطع منحه صفة الفحل ، التي خصّ الشعراء الجاهليين بها[١٨].

ومن هنا نفهم قوله عن بشار : ((والله لولا أيّامه تأخرتْ لفضّلتُه على كثير منهم))[١٩]، فهو يرى أن بشاراً أفضل من كثير من المتقدمين ؛ لجودة شعره ، ولكن لم يستطع أن يقدمه لتأخر زمانه على وفق مقاييس أهل اللغة ؛ إذ جاء بعد عصر الاستشهاد .

وهكذا يتضح أن تقديم الشعراء لم يكن على أساس فني من صدق إحساس ، أو جودة عبارة ، أو جمال صورة، أو غير ذلك مما يعني به الناقد ، وإنما يفضل الشاعر لمجرد السبق في الزمن[٢٠]، ولذا نراهم إذا تحرروا من هيمنة هذا المعيار ـ من حيث لا يشعرون ـ نظروا إلى الشعر بعين الرضا إذا استوفى عناصره الفنية ، فيستحسن الأصمعي أبياتاً أنشدها إسحاق بن إبراهيم الموصلي [٢١]:﴿من الخفيف﴾

هـــل إلى نظـــرةٍ إليـــك سبيـــلُ فيُـروَّى الصَّـدَى ويشـفى الغـليلُ
إنَّ مـا قـــلَّ مـــنك يكـثُرُ عنـدي وكثـيرٌ مـمـن تُحـــبُّ القـليـلُ

((فقال له ﴿الأصمعي﴾ : لمن تنشدني ؟ فقال : لبعض الأعراب ، قال : والله هذا هو الديباجُ الخسرواني ، قال : فأنهما لليلتهما ، فقال : لا جرم والله إن أثر الصنعة والتكلف بيّن عليهما))[٢٢] ، فالناقد استحسن هذه الأبيات على أنها لبعض الأعراب ، فانتزع إسحاق الموصلي حكم الأصمعي على الشعر بهذه الطريقة ؛ إلا أن هذا الديباج الخسرواني سرعان ما يذهب بريقه وبهجته، بسبب حداثة القائل فيقول له : ((لقد أفسدتهما عليّ))[٢٣].

أمّا ابن الأعرابي (ت:٢٣١هـ) الذي يعمد إلى المعيار نفسه ؛ نراه يُصرح بأصالة شعر الأقدمين ، التي يفتقدها في شعر المحدثين من معاصريه ، فيقول : ((إنما أشعار هولاء المحدثين ــ مثل أبي نؤاس وغيره ــ مثل الريحان يُشّمُ يوماً ويذوي فيرمى به ؛ وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيباً))[٢٤] ، ولّما أُنشد شعراً لأبي نواس أحسن فيه ، يسكت !!، فقيل له : أما هذا من أحسن الشعر ؟ فقال : بلى ، ولكن القديم أحب إليّ[٢٥]، فلا شك أن

الشعر الذي سمعه جدير بالإعجاب ولكنه لا يجرؤ أن يمس قدسية التراث ؛ ذلك أن ذوقه قد ختم بخاتم القديم ، فلا يستجيب إلا له[٢٦]، حتى حكي عنه أنه كان شديد التعصب على أبي تمام [٢٧]، ويسمع شعراً له فيقول : ((إن كان هذا شعراً فما قالته العرب باطلاً))[٢٨]، فالناقد بذوقه الفني يُعجب ببعض الشعر المحدث ، قبل أن يعرف قائله ، فإذا عرفه غض منه ، وتنكر له [٢٩]، يقول أبو عمرو بن أبي الحسن الطوسي : ((وجه بي أبي إلى ابن الأعرابي لأقرأ عليه أشعاراً ، وكنت معجباً بشعر أبي تمام ، فقرأت عليه من أشعار هذيل ، ثم قرأت أرجوزة أبي تمام على أنها لبعض شعراء هذيل :﴿من الرجز﴾

وَعــــاذِلٍ عَذَلتُـــهُ فِي عَذلِـــــــــهِ فَظَـــنَّ أَنّـــي جاهِـــلٌ مِـــن جَهلِـــهِ

حتى أتممتها ، فقال : أكتب لي هذه ، فكتبتها له ، ثم قُلت : أحسنةٌ هي ؟ قال : ما سمعت بأحسن منها ، قلت : إنها لأبي تمام فقال خرّق ، خرّق))[٣٠]، وكأنَّ الاستحسان عنده كان مشروطاً بقدم القائل ، حتى لو رأى بحذقه الفني إجادة الشاعر المحدث في شعره،

وهكذا كانت لحظات الإعجاب التي تمخضت عن مثل هذه الأحكام ، أضعف بكثير من آثار الموقف المتزمت الذي قرره اللغويون إزاء الانحياز إلى القديم .

فابن الأعرابي ـ هنا ـ يرفض أن يشاع عنه تفضيل المحدث؛ لتمسكه بمنهجه اللغوي ، فهو يسكت عندما سمع شعراً حسناً مع علمه بقائله ، بعد أن انتزع منه السائل الحكم ، بأن هذا من أحسن الشعر ، ولكن الناقد تدارك ذلك ؛ بأن القديم أحب إليه ، وهو هروب من الحقيقة ، والحكم على وفق معيار الزمن ، وقد أطلق حكمه علانية على أرجوزة أبي تمام قبل أن يعلم أنها له ، إلا أنه سرعان ما عاد إلى حكمه الأول في أن هذا الشعر (باطل) ، وطلب منه أن يخرقه ، وكأنه يريد (من تخريق الأرجوزة) أن لا ينقل عنه أنه استحسن هذه

القصيدة ، وربما أراد أن يُنقل هذا عنه ، ولكن تمسكه بالقديم حتم عليه أن يجافي ذوقه الشخصي (النقدي) ، من أجل الحفاظ على اللغة .

ولابد من الإشارة إلى أن (ابن الإعرابي) كان يتمثل ببيت أبي تمام : ﴿من المنسرح﴾

تَرمـــي بِأشـــباحِنا إِلى مَلِـــكٍ نَأخُـــذُ مِـــن مالِـــهِ وَمِـــن أَدَبِـــه

وإننا لا نوافق من ذهب إلى أن ابن الأعرابي تمثل بهذا البيت دون العلم بمرجعيته لأبي تمام، وأنه لو علم ، ما تمثل به [٣١]، وهذا الرأي قد يحط من شأن الناقد الذي ((لم يُرَ أحدٌ في علم الشعر أغزر منه))[٣٢]، فهل يمكن لمثل هذا العالم أن يتمثل بشعر لا يعرف قائله ؟ !!.

وفي الوقت الذي نلمس فيه تناقضاً واضحاً من ابن الأعرابي في الحكم ، إن جاز لنا هذا القول ، يمكننا أن نرد هذا التناقض إلى حالة الصراع التي يعيشها الناقد وقت الحكم ، بين سلطة المنهج ، وذوقه الفني ، فهو محكوم بمنهج العودة إلى الشعر الجاهلي واتخاذه مقياساً للجودة ، من حيث البناء الفني أو الزمن المقدس الذي ينتمي له الشعر والشاعر ، فإذا وجد الناقد شعراً محدثاً سما بالحسن وطغت عليه الشاعرية ، فأنه يقف موقف المتحير بين منهجه اللغوي وذوقه الفني ، فإن أُغفل اسم الشاعر فلا باس في تفضيل شعره وتمثله ؛ لأنه مقدم في قرارة نفس الناقد ،وخلاف ذلك يكون من الأولى الرجوع إلى المنهج والاحتكام لما أقروه ، إذ لا يمكن مخالفته .

وهكذا فقد كان موقفهم من الشعر المحدث موقفاً متطرفاً ؛ نتيجة لتأثرهم بالمنهج اللغوي ، الذي خلق لهم أطاراً ذهنياً خاصاً ، خضعوا من خلاله للتقاليد الشعرية الجاهلية ، وتحاملوا بشدة على المحدث ؛ لأنهم عدوا أنفسهم حماة اللغة وسدنتها .

ومع أن موقف اللغويين في القرن الثالث ـ وهم رواة الشعر واللغة من (الجيل الثاني) كالأصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي ـ ، قد شهد تعصباً أقل

مما كان عليه لغويو القرن السابق أمثال أبي عمرو بن العلاء ومن في طبقته ، ويمكن أن نطلق عليهم (الجيل الأول) من رواة الشعر واللغة ، ولكن ابن الأعرابي إلتزم صرامة اللغويين الأوائل في نظرته للشعر، وكان يحكم بين العصرين ، لا الشعرين[٣٣] ، بيد إن ثمة فارق بين قديم الجيلين ، من حيث الزمن ، فقد اتسع ـ عند الجيل الثاني ــ مفهوم القديم ، وأصبح لا يقتصر على الشعر الجاهلي وحسب بل الإسلامي كذلك ، حتى سنة (١٥٠هـ) [٣٤] ، بينما تعصب الأول للقديم والجاهلي بنوع خاص ، واتخذوه مادة لرواياتهم واستشهاداتهم ، ورفضوا ما دونه (المحدث) الذي لم ينل حضوة عندهم .

فقد ظل معيار الزمن من المعايير المهمة التي أتخذها النقاد أساساً في نظراتهم النقدية ، في مفاضلتهم بين الشعراء ، إذ يمثل جهد ابن سلاّم (ت:٢٣١هـ) تلخيصاً متطوراً لآراء شيوخه اللغويين في هذا المجال [٣٥] ،فقد قسم ابن سلاّم الشعراء على وفق هذا المعيار إلى طبقات أهل الجاهلية ، وطبقات أهل الإسلام ،ونزلهم منازلهم [٣٦]، ويظهر حرصه على التقسيم الزمني ؛ أنه لم ينزل إسلاميا في طبقة الجاهليين ، إلا إذا كان مخضرماً، قد أدرك الجاهلية . فضلاً عن أن مفهوم النقد عنده كان مرتبطاً برواية الشعر القديم، فلم يتعرض للمحدثين بكلمة ، على الرغم من أنه عاش في عصرهم، وعاصر عدداً منهم، لاسيما أنه توفيّ في العام ذاته الذي توفي فيه أبو تمام (ت:٢٣٢هـ) [٣٧]، وهذه نظرة إكبار وتعظيم لذلك الزمن وشعرائه . ولكن إذا ما أخل الشاعر القديم بالمقومات التي يريدها أهل اللغة ، فأن ذلك يُفقده الهيبة ، والتفضيل ألتي مُنحت لأقرانه ، وإن كان معاصراً لهم [٣٨]، وهنا يبرز معياراً آخر عند اللغويين، يرتبط بمعيار الزمن هو(البداوة) ، إذ كان له الحضور الدائم في تفضيل الشعراء وتقديمهم على أقرانهم.

ـ أثر البداوة :

عكف أهل العربية ـ ولاسيما اللغويون ـ على أخذ اللغة والأدب من منابعها الأصلية ، وحملوا تلك المهمة التي كانوا يشعرون بأنها تاريخية ، بما يروون ؛ ليدونوا سِفراً عريقاً من تراث الأمة العربية ، ويتركوا للخلف كلَّ ما كان للعرب من ذلك التراث الأدبي ، فضلاً عما وضفوه للاستشهاد والاستنباط ، والقياس ، وتوضيح العلل ، الأمر الذي دعاهم إلى دراسة البيئات العربية المختلفة ، ومعرفة أفصحها ، وفصيحها ، وإظهار ما شاب بعضها ممن يتحرج عنه اللغويون ، وما عسى أن يكون قد خالط بعضها من فساد [٣٩] ، فمن هنا جاءت دراساتهم للشعر الذي ظهر في هذه البيئات ، واهتدوا عبر تلك الدراسة إلى تعليل كثير من الظواهر في الشعر العربي ، وقادهم هذا إلى أن يفرقوا بين الشعراء من جهة الفصاحة ، والاستشهاد بأشعارهم ، أو عدمها .

اعتمد النحاة واللغويون على أخذ اللغة ، وشواهدها من فبائل سكان البوادي ، بعد أن رسموا الحدود الجغرافية لمواطن القبائل الفصيحة ، فكانت منطقة وسط الجزيرة العربية الأسلم والأفصح عندهم ؛ لابتعادها عن الاختلاط ، وسلامة اللسان ، فلم يأخذوا من سكان الحضر ، ولا سكان أطراف الجزيرة ؛ بحجة أنهم اختلطوا بغيرهم من الأمم ، فاختلطت لغتهم ، ومن ثم ضعفت وفسدت ألسنتهم [٤٠] ، فتتبعوا كلام العرب لاستنباط قواعدهم النحوية ، واللغوية من خلال ما وصل إليهم من لغة وأدب ، واعتباره أصل من الأصول التي يتم القياس عليه في درسهم اللغوي ، ونقدهم الأدبي ، ذلك أنهم آمنوا أن اللغة العربية لغة صحراوية ، والصحراء مكان ازدهارها التي ابتعدت فيه عن اللحن الذي شاع عند سكان الحضر[٤١]، فمن هنا أضحت البداوة مقياساً للفصاحة ، وأساسا يبنى عليها الكلام العربي الصحيح ، فضلاً عن تعصب الرواة من رواية الشعر الحضري ، إلا ما كان يمت في أصله إلى البادية ، ويكون رجاله من النازحين منها إلى المدينة مثل

النابغة ،و حسان[٤٢]، وكأن الشعر أصبح وقفاً على رجال البادية ؛ ذلك أنَّ اللغويين نظروا إلى قبول الشعر من خلال فصاحته ، وسلامة لغته من أي شائبة ، أو دخيل على العربية ، ووجدوا مُبتغاهم في ذلك الشعر البدوي الذي يجري على وفق قواعد وسنن العربية الخالصة ، فبهذه النظرة اللغوية حكموا على الشعراء ؛ وهذا ما أخر عدي بن زيد العبادي [٤٣]، الذي لان لسانه وسهل منطقه [٤٤]؛ لذا وضعه أبو عمرو بن العلاء (ت:١٥٤هـ) من الشعراء بمنزلة ((سُهيلٍ في النجوم ؛ يعارضُها ولا يجري مجاريها))[٤٥]، وهو ما سجله أبو عبيدة (ت:٢١٠هـ) على عدي ، فقال : يعني أنه يشبّه بها ويعقد به عن شأوها ألفاظه الحيرية ، وأنها ليست بنجدية ، على أن حضرية الألفاظ ولين اللسان وسهولة المنطق عائق حال بين الشاعر، وبين الارتقاء إلى طبقة الشعراء الفحول ، فهو ليس بفحل ولا أنثى عند الأصمعي (ت:٢١٦هـ)[٤٦]، والحال نفسه كان لأبي دواد الأيادي ، إذ اكتفى الأصمعي بمنحة لقب (صالح) ولم يقل: أنه فحل [٤٧] ؛ لما خالط شعره من لغات ، وتأثر بها، وبذلك فأنّ علماء اللغة لا يرون في مثل هذا الشعر حُجّة [٤٨].

وهكذا لم يشفع الزمن لعدي ، ذلك بأن شفاعة الزمن رهنٌ بالتزام الشاعر بما يقرره اللغويون من قواعد وأصول [٤٩]، فالعرب لا تروي أشعاره ؛ لأن ألفاظه ليست بنجدية ، فضلاً عما أدخله في شعره من ألفاظ اللغات غير العربية [٥٠]، وكان ابن سلام (ت:٢٣١هـ) يرجع لين اللسان ، وسهولة المنطق ؛ لمجافاة البادية ، والإقامة في الحواضر ، فـ((عدي بن زيد كان يسكُن الحيرة ويراكن الريف ، فلان لسانُه وسَهُـل منطِقه ، فحُمِل عليه شيء كثيرٌ، وتخليصه شديد...))[٥١].

من هنا يتضح لنا أن العلماء يقرّون بارتفاع منزلة عدي أو غيره ممن سكن الحضر ، إلا أنهم لا يرون أن شعرهم حجة ، ولذا لا يُستشهد به ؛ لأن ألفاظه ليست بنجدية ، و يرى البحث ، أنه لا يصح أن يؤخذ على شاعرٍ استعماله

ألفاظ معينة ، أو شك الناقد أنها ليست عربية ، أو أن يؤخذ بأنه يسكن هنا أو هناك ، فتكون بيئته سبب تأخره والحط من منزلته ، أو يؤخر عن سواه ؛لأنه لا يُحتج بشعره ، فهذه الأسباب لغوية ، تنفع عالم اللغة في مجال بحثه اللغوي ، وليس الناقد الفني الذي يفتش عن جمال اللفظ ، وحسن المعنى وما إلى ذلك من وجوه جودة الشعر التي تكون في ذاته ، بغض النظر عن أن هذا الشعر يُحتج به ، أو لا يُحتج ، فجمالية الشعر وتأثيره في المتلقي شيء ، والاحتجاج به شيء آخر ، ولا نخال أن ما استند عليه ــ من أخر عدي أو غيره من الشعراء الحضرـ لا يخل بشاعرية أحد منهم وهذا ما يسلم به النقاد أنفسهم ، لكن خضوعهم لمنهجهم اللغوي قادهم إلى مثل هذه الأحكام.

من هنا كان أثر البيئة في الشعر ذا تأثير مباشر على ما يصدر من الشاعر ، فما يرتضيه النقاد تلك اللغة البدوية التي لم تختلط ، أو يدخلها شيء غريب عمّا استقوه ووضعوه من القواعد والقوانين ، فصار قياس فصاحة الشاعر بارتباطه ببيئته البدوية ، والابتعاد عنها يفقده تلك الثقة من النقاد ، لذا بلغ من فرط إعجابهم بفخامة ما ينسب للأعراب من الكلام أن يقدموه ، حتى لو كان على حساب ذوقهم الأدبي . يروى عن خلف (ت:١٨٠هـ) أنه سمع قول بشار بن برد : ﴿من الخفيف﴾

بَكِّــرا صــاحِبَيَّ قَبــلَ الهَجــيرِ إِن ذاكَ النَجــــاحَ في التَــــبكير

فقال : لو قلت يا أبا معاذ ، مكان (إنَّ ذاك النجاح) (بكراً فالنجاح في التبكير) كان أحسن ، فقال بشار : بنيتها أعرابية ، وحشية فقلت : (إنَّ ذاك النجاح) كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت :(بكراً فالنجاح) ، كان هذا من كلام المولدين ، ولا يُشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل في معنى القصيدة ، فقام خلف فقبل بين عينيه !(٥٢).

فالناقد ــ هنا ــ تراجع عن ملاحظته النقدية على البيت ، وتخلى عن رأيه الفني به ، ليعود لمنهجه الذي يقضي عليه سلامة لغة الأعراب وفصاحتها ،

أينما حلت ، من دون النظر إلى الأبدع الفني ، وجمالية الصورة ، ويرى البحث أن رد بشار فيه من الذكاء ما فيه، إذ عرف من أين تؤكل الكتف ، فما يعرفه عن اللغويين من تعظيم لتلك اللغة البدوية أغناه عن كثير من التعليل في استعماله الكلام ، فكانت إحالة العبارة على البداوة ؛ ما أفحمت خلف ، بل حولته من معترضٍ يقترح التبديل ، إلى معجبٍ وصل به حد الإعجاب أن قام وقبل الشاعر على كلامه .

و يروي ابن الأعرابي (ت:٢٣١هـ) عن يونس بن حبيب (ت:١٨٢هـ) أنه نفى الفصاحة عن عبيد الله بن قيس الرقيات ، في معرض سماعه قوله [٥٣]:

﴿من المنسرح﴾

مـا مـر يَـومٌ إلّـا وَعِنـدَهُما لَحـمُ رِجـالٍ أَو يولَغـانِ دَمـا

فهو يصور ضراوة الأسدين ، وقوة افتراسهما ، فعندهما في كلِّ يومٍ من دماء القتلى كثير ، ومن الرجال الذين يفترسانهم ، أو يشربان من دمائهم ، ومن خلال وصف قوة الخصم ، ينجح في إثبات الشجاعة والحزم لنفسه ، فهو لا يخاف هذين الأسدين الضاريين اللذين يفترسان الرجال ، ويشربان دمائهم.

فبعد أن أجاز يونس (يولغان) في الاستعمال ؛لأن ((أكثر ما يكون الولوغ في السباع))[٥٤]، إلا أنَّه لم يعترف بفصاحة الشاعر فقال : ليس هو بفصيح ، ولا ثقة شغل نفسه بالشرب بتكريت [٥٥].

وكذلك أُخذ على الكميت و الطرماح من شعراء الإسلام ، أنهما حضريان ، و((قال العجاج : كانا يسألاني عن الغريب ، فأخبرهما به ، ثم أراه في شعرهما وقد وضعاه في غير موضعه ، فقيل له : ولم ذاك ؟ قال : لأنهما قرويان يصفان ما لم يريا ، فيضعانه في غير موضعه ، وأنا بدوي أصف ما رأيت فأضعه موضعه))[٥٦]، وقد صنفهم الأصمعي بالنسبة إلى القيمة

اللغوية لأشعارهم ، لا القيمة الأدبية الفنية التي تحدد شاعرية الشاعر وتُظهر مدى إبداعه ، فقد نفى عنهما أن يكونا حجة [٥٧].

ومما تقدم يتضح أثر البداوة في الشعر والشعراء ، ومدى تمسك النقاد بتلك البيئة التي صقلت بفصاحة لغتها ، وعذوبة ألفاظها وفخامتها ، كل قرائح من نهل من منابعها ، فأضحت نتاجاتها الفنية التي نبتت على أرضها ، أنموذجا يقدّم بمجاراته الشعراء ، فمن خالفه خرج عن مذهب أهل الشعر الذي أقره النقاد والتزموا به ، فلم يرووا لأبي دواد ؛ لمخالفته مذاهب الشعراء [٥٨] ، وما أخر عدي عن أقرانه ؛ تأثره بمن حوله من الاختلاط ، والبيئة الحاضرة التي هو فيها ، ما نال من ملكته الشعرية ، ومن فصاحته في اللغة ، وأنَّ إقامة ابن قيس الرقيات بتكريت أضرت بفصاحته الحجازية ، فكل هذه الأحكام التي وقف عندها اللغويون ، ما هي إلا تجسيداً لأثر منهجهم اللغوي ،والذي أرادوا من خلاله أن يسبغوا على البنية الشعرية طابع البداوة العربية السليمة من الضعف واللين والخطأ ، فبعد أنّ اعتدوا بالقديم وأضحى الزمن معياراً نقدياً ، زادوا بعض المقاييس والضوابط التي أخرت قسم من الشعراء ، وأبعدتهم عن مراتبهم الفنية ، وبهذه النظرة المتشددة للزمن من جهة ، و البداوة من جهة أخرى ، ضاع الكثير من أسماء الشعراء مع ما نظموا ، ليس لسبب ؛ إلا لأنهم جاءوا متأخرين ، أو لم يسكنوا البادية .

الخاتمة :

وفي ختام البحث يمكن أن نجمل النتائج التي خلص لها البحث على النحو الآتي :

١- سيادة الشعر القديم ، وعدّه المثال الذي يجب على شعراء العصور اللاحقة تمثلة ، مثلما تمثله أهل اللغة من قبل ، وهكذا صار شعراء ذلك

المثال هم المقدمون لتقدم زمانهم ، فتقدم المتقدم لتقدم زمانه ، وأن كان متأخراً ، وتأخر المتأخر لتأخر زمانه وان كان متقدماً .

٢- أصبح عنصر (الزمان) ، معياراً نقدياً ، يدخل في أسس النظر والتقويم ، بشكل يطغى على المعايير الفنية ، إذ تجرد النقاد من أذواقهم الفنية ، حتى في أشد حالات الإعجاب بالشعر المحدث .

٣- إسباغ طابع البداوة على البيئة الشعرية ، وعدها شرطاً لقبول شعر الشاعر ، وهذا ما أخر كثيراً من الشعراء ، وأبعدهم عن مراتبهم الفنية .

٤- بين البحث أنَّ قضية التعصب للقديم ، لم يكن الغرض منها فنياً على الإطلاق ؛ وإنما لموافقة اللغة ، ذلك أن شعر تلك الفترة قريب العهد بوضعها ، فضلاً عن نزول القرآن بها ، فجاء نقدهم للشعر من وجهة علمية صرفة ، لم يستطيعوا من خلالها أن يدركوا الجمال الفني للشعر .

ملخص البحث:

لما كانت النظرات الأولى في النقد العربي القديم ترجع إلى أعلامه الأوائل ، الذين كان معظمهم من اللغويين ، صار لابد لها أن تكون مطبوعة بطابع أهل اللغة ، وبات من الطبيعي أن يتجهوا إلى القديم ؛ تطلباً للشاهد ،وبوصفه الحاضنة الأصلية للغة ، وقد اشتد حرصهم على طلبه ، وتمثله ، فلما أطالوا مدارسته ، ألفوه وأعجبوا به ، إلى أن تحول هذا الإعجاب ضرباً من التعصب له ، وإضرابهم عن الخوض في تفاصيل المحدث ، وهكذا غدا الزمان معياراً نقدياً ، دخل في أساس النظر والتقويم ، فضلاً عن البداوة التي طغت أحياناً على المعايير الفنية التي يقاس على أساسها العمل الفني .

Abstract

Since the early views to the Ancient Arab criticism are related to the first scholars who were mostly linguists, therefore it had to be dominated by the thoughts of the linguistics scholars.

This made the tendency toward the thoughts of the ancients considered as the original provider of the language. Therefore they were eager to study it and were used to its thoughts to the degree that it became an obsession and refused to study anything new. That is how the period of the work became a standard for criticism in addition to bedewing which sometimes dominated the artistic standards on which the artistic work is viewed.

هوامش البحث

(١) النقد المنهجي عند العرب : ٧١.

(٢) النقد اللغوي عند العرب : ٨٥ .

(٣) ظ: تاريخ النقد الأدبي عند العرب:٩٤ .

(٤) النقد اللغوي عند العرب :٨٦ .

(٥) ظ : م . ن :٨٦ .

(٦) ظ :أثر المنهج اللغوي في النقد العربي القديم ، بحث منشور في مجلة كلية الفقه ، جامعة الكوفة ع٩/٢٤ .

(٧) ظ: دراسات في النقد العربي: ٨٦ .

(٨) العمدة :١/٩٠ .

(٩) البيان والتبيين :١/٣٢١ ، و العمدة :١/٩٠ ويروى عشر حجج .

(١٠) العمدة : ١/٩٠-٩١ .

(١١) ظ : أبو تمام بين ناقديه : ٦٤ .

(١٢) فحولة الشعراء : ١٣.

(١٣) ظ : أثر المنهج اللغوي في النقد العربي القديم: ٢٤ .

(١٤) ظ: الموشح :٣٦٣ ، ظ: معجم الأدباء :١٨/٦٨ .

(١٥) ظ : ملامح في تراث العرب النقدي : ٤٨ .

(١٦) فحولة الشعراء : ١٢.

(١٧) فحولة الشعراء :١٣. والبيت في ديوان الأخطل : ١/٣٩ .

(١٨) ظ: دراسات نقدية في الأدب العربي : ٣٥٣ .

(١٩) تجريد الأغاني : ١/٣٧٣ .

(٢٠) ظ: النقد المنهجي عند العرب : ٧٥ ، وظ: الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام :٤١ .
(٢١) ديوان إسحاق الموصلي : ١٦٦ .
(٢٢) الموازنة : ١/٢٣-٢٤.
(٢٣) م . ن :١/٢٤ .
(٢٤) الموشح : ٣١٠ .
(٢٥) ظ : م . ن : ٣١٠ .
(٢٦) ظ: أبو تمام بين ناقديه :٦٤- ٦٥ .
(٢٧) ظ: الموازنة :١/٢٢ .
(٢٨) أخبار أبي تمام : ٢٤٤ .
(٢٩) النقد اللغوي عند العرب :٩١ .
(٣٠) أخبار أبي تمام :١٧٦ ، ظ: الموازنة :١/٢٢ .
(٣١) ظ: أخبار أبي تمام :١٧٥.
(٣٢) ظ: انباه الرواة على انباه النحاة :٣/١٣١ .
(٣٣) ظ :الأغاني : ١٧/١٢.
(٣٤) ظ: دراسات في النقد العربي :٨٦ .
(٣٥) ظ : ملامح في تراث العرب النقدي : ٥١ .
(٣٦) ظ: طبقات فحول الشعراء : ١/٢٤ .
(٣٧) المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين : ١٩٢ ، تاريخ النقد الأدبي:٨١ .
(٣٨) ظ : أثر المنهج اللغوي في النقد العربي القديم:٢٤ .
(٣٩) ظ: تاريخ النقد الأدبي :٦٨ .
(٤٠) ظ : الشاهد في النقد العربي القديم: ١١ .
(٤١) ظ: تاريخ النقد الأدبي: ١٠٠ .
(٤٢) ظ: م . ن: ١٠ .
(٤٣) هو عدي بن زيد بن حماز(ويروى حماد و جماد) بن زيد بن أيوب بن محروف (أو محروب) ابن عامر بن عُصيَّة(أوعصبة) بن امرئ القيس بن زيد مناة تميم ، شاعر من أهل الجاهلية ، وكان نصرانياً وأهله . ظ: الشعر والشعراء : ١/٢٢٢ ، الأغاني : ٢/٨٩ ، وتجريد الأغاني :١/١٩١ ، و خزانة الأدب : ١/٣٨١ .

(٤٤) ظ: طبقات فحول الشعراء : ١٤٠/١ ، والموشح :٩٢ .
(٤٥) الشعر والشعراء : ٢٢٤/١ . ، وظ : الموشح : ٩١ ، ونسب القول في الأغاني : ٨٩/٢ ، لأبي عبيدة والأصمعي مع بعض الاختلاف في نص الرواية .
(٤٦) ظ: فحولة الشعراء : ١١ .
(٤٧) ظ: م . ن : ١٢ .
(٤٨) ظ : شرح أبيات مغني اللبيب : ٤/ ٤٨ .
(٤٩) ظ: أثر المنهج اللغوي في النقد العربي القديم :٢٤ .
(٥٠) ذكر المرزباني في(الموشح : ٩٢)عن المفضل ، قوله : أن الوفود كانت تفد على الملوك في الحيرة ، فكان عدي بن زيد يسمع لغاتهم ، فيدخلها في شعره .
(٥١) طبقات فحول الشعراء : ١٤٠/١ .
(٥٢) ظ: الأغاني : ١٨٥/٣ .
(٥٣) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات : ١٥٤ . وقد ورد البيت برواية :
لم يأت يوم إلا وعندهما لحم رجال أو يولغان دما . و الولغ : شرب السباع بألسنتها .
(٥٤) اللسان : ٨/ ٤٦٠ ، (ولغ) .
(٥٥) ظ : الأغاني : ٩٧/٥ .
(٥٦) م . ن : ٩٠/٢ .
(٥٧) ظ: فحولة الشعراء : ٢٠ .
(٥٨) ظ : الأغاني : ١٦/ ٤٠٧ .

قائمة المصادر والمراجع

❖ أبو تمام بين ناقديه قديماً وحديثاً ، د. عبد الله بن حمد المحارب ، ط١ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م .

❖ أثر المنهج اللغوي في النقد العربي القديم ، أ . د حاكم حبيب الكريطي ، أ م . د عقيل الخاقاني ، (بحث منشور) في مجلة كلية الفقه ، جامعة الكوفة ، السنة الخامسة ،العدد التاسع ،١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

❖ أخبار أبي تمام ، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت:٣٣٥هـ) ، تحقيق : خليل عساكر ، محمد عبدة عزام ، نظير الإسلام الهندي ، المكتب التجاري ، بيروت ، (د. ت) ، (د .

ط) .

❖ الأغاني ، أبو فرج الأصفهاني (ت:٣٥٦هـ)، تحقيق : علي مهنا ، وسمير جابر ، دار الفكر ، لبنان ، (د.ت)(د.ط).

❖ إنباه الرواة على أنباه النحاة، أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت:٦٢٤هـ) ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت، ط١ ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.

❖ البيان والتبيين : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت:٢٢٥هـ) ، تحقيق :فوزي عطوي ، دار صعب ، بيروت ، (د.ط)،(د.ت) .

❖ تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري ، ط١ ، طه أحمد إبراهيم ، دار القلم ، بيروت ـ لبنان ، ١٩٨٨م .

❖ تجريد الأغاني ، ابن واصل الحموي (ت:٦٩٧هـ) ،تحقيق : د. طه حسين ، إبراهيم الأبياري ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٧٤هـ ــ ١٩٥٥م (د .ط).

❖ الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام تاريخها وتطورها وأثرها في النقد العربي ، د. محمد الربداوي ، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ،١٩٦٧م ، (د.ط).

❖ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، عبد القادر بن عمر البغدادي (ت:١٠٩٣هـ)، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ، ط٤ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .

❖ دراسات في النقد العربي ، د. عثمان موافي ، ط٣ ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، ١٩٩٨م.

❖ دراسات نقدية في الأدب العربي ، محمود عبد الله الجادر ، مطابع دار الحكمة ، الموصل ، ١٩٩٠م .

❖ ديوان إسحاق الموصلي دراسة وتحقيق ، جمعه وحققه : ماجد أحمد العزي ، ط١، مطبعة الإيمان ـ بغداد ، ١٩٧٠ م .

❖ ديوان عبيد بن الأبرص ، تحقيق : حسين نصار ، ط١، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م .

❖ الشاهد في النقد العربي القديم إلى نهاية القرن السابع الهجري (دراسة وصفية) ، علاء مهدي عبد الجواد النفاخ ، (رسالة ماجستير) ، جامعة الكوفة ، كلية الآداب ، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م .

❖ شرح أبيات مُغني اللبيب ، عبد القادر بن عمر البغدادي (ت:١٠٩٣هـ) ، تحقيق ونشر : عبد العزيز رباح ، أحمد يوسف دقاق ،ط٢، دار المأمون للتراث ، و دار الثقافة العربية ، دمشق،١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .

❖ الشعر والشعراء ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت:٢٧٦هـ)، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م ، (د. ط) .

❖ طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلاّم الجمحي (ت:٢٣١هـ)، قرأه وشرحه : محمود محمد شاكر ، دار القدس ، القاهرة ، و دار المدني للطباعة والنشر ، جدة ، (د.ت).

❖ العمدة في محاسن الشعر ، وآدابه ، ونقده ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت:٤٥٤هـ)، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٥، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت – لبنان ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .

❖ فحولة الشعراء ، عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت:٢١٦هـ)، تحقيق : ش. تورّي ، ط١ ، دار الكتاب الجديد ، لبنان ، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٧١م .

❖ لسان العرب ، الأمام العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري (ت:٧١١هـ)، ط١ ، دار صادر ، بيروت .

❖ ملامح في تراث العرب النقدي ، د. محمود عبد الله الجادر ، منشورات دار الجاحظ للنشر ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

❖ الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (ت:٣٧٠هـ) ،تحقيق : السيد أحمد صقر ، ط٤، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٤م .

❖ الموشح مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر ، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (ت:٣٨٤هـ)، تحقيق : على محمد البجاوي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، (د. ت).

❖ النقد اللغوي بين التحرر والجمود ، د. نعمة رحيم العزاوي ، دار الشؤون الثقافية والنشر ، بغداد ، ١٩٨٤م .
❖ النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة ، د. محمد مندور ، ط٦ ، نهضة مصر ، ٢٠٠٧م .